مراجعة كتاب:

دلالية اللغة في أنوار الحقيقة لسعيد النورسي: رسالة سمو القرآن أنموذجاً

Semantic of Language in *ʾanwār al-Ḥaqīqah* written by Saʿīd Al-Nawrasiy: Message of Holy Quran as a Case Study

Bahasa Semantik dalam *ʾanwār al-Ḥaqīqah* oleh Saʿīd Al-Nawrasiy: Mesej Keagungan al-Quran sebagai Kajian Kes

الشريف حبيلة*

مقدمة:

حينما طلب مني الدكتور محيي الدين صالح التعليق على كتاب بديع الزمان سعيد النورسي "أنوار الحقيقة في التصوف والسلوك" وكنت إلى غاية هذا الوقت لم أقرأ من كتبه كتاباً واحداً، إلا ما كان من الدكتور سعيد رمضان البوطي في كتابه (من الفكر والقلب)،[1] عندما خص بديع الزمان بمقالتين، ولم أكترث كثيراً رغم إعجابي بهذا الرجل خاصة تلك الطاقة الروحية التي سبر أغوارها الكاتب، وتدور السنون لألتقي الدكتور صالح بمصر في مقر الرابطة العالمية للأدب الإسلامي بالقاهرة، حيث يقدم لي "أنوار الحقيقة" هدية، ثم يطلب مني التعليق على ما جاء فيها في بضع أوراق لا تتجاوز العشر.

عدت وكلي عزم على أن أقرأ الرسائل خاصة وقد عرفت ما كان من تأثير لها على الناس في مختلف البقاع، تسكن القلوب بمجرد مطالعتها، وهو السبب الذي دفعني أكثر إلى محاولة اكتشافها، واكتشاف القوة التي جعلتها كذلك. نعم لقد اكتسبت ذلك من قوة صاحبها القدوة والنموذج عبر الدلالات والمعاني التي تتضمنها، لكن هاجساً علمياً يقول لي وأنا أقرأها أن سبباً آخر يكمن خلف قوتها. لذا وضعت خطة لدراستها، ورأيت أن تناول الكتاب جملة يحتاج إلى وقت وجهد أكبر وعمل يتجاوز المقال، فكان أن اخترت رسالة واحدة من الكتاب لتكون موضوع الدرس، ولم أجد أفضل وأنسب من الرسالة التي كانت مفتاح هذه المجموعة، وقد عنونها بديع الزمان بـ"سمو القرآن" .

* قسم اللغة والأدب العربي، جامعة تبسة– الجزائر، العنوان ص ب ٠١ جبل أنوال تبسة١٢٠٠٠ الجزائر.

وحتى لا أقع في التقريرية والتفسيرية المباشرة التي تؤدي إلى الشرح البسيط والساذج، انتخبت منهجاً نقدياً اعتدناه في دراسة النص الأدبي وهو الدراسة النصية والدلالية لفعل الكتابة في مستواها اللغوي،[٢] لعل السبب الآخر لاختيار منهج كهذا هو المستوى اللغوي الرفيع الذي كتبت به الرسائل، حتى وإن كانت في غير لغتها الأم، فإن ترجمتها تنبئ عن رفعة لغتها.

ولن أتعرض بالتعريف للمنهج أو الرسائل، إنما يعرض الأول نفسه كأداة دراسة عبر مراحل البحث، أما الرسائل فلا تحتاج لمن يعرف بها.

نص الرسالة: سمو القرآن

إذا أردت أن تفهم كيف يسمو القرآن على سائر الكلمات الإلهية وتعرف مدى تفوقه على جميع الكلام. فانظر و تأمل في هذين المثالين:

المثال الأول: أن للسلطان نوعين من المكالمة، وطرازين من الخطاب والكلام:

الأول: مكالمة خاصة بوساطة هاتف خاص مع أحد رعاياه من العوام، في أمر جزئي يعود إلى حاجة خاصة به.

و الآخر: مكالمة باسم السلطنة العظمى، وبعنوان الخلافة الكبرى وبعزة الحاكمية العامة، بقصد نشر أوامره السلطانية في الآفاق، فهي مكالمة يجريها مع أحد مبعوثيه أو مع أحد كبار موظفيه، فهي مكالمة بأمر عظيم يهم الجميع.

المثال الثاني: رجل يمسك مرآة تجاه الشمس، فالمرآة تلتقط –حسب سعتها– نوراً وضياءً يحمل الألوان السبعة في الشمس.

فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة، أو مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عظم الشمس.

بينما رجل يترك المرآة، ويجابه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل عالٍ جداً وينظر إلى شعشعة سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب، ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير ومن مشتله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس، واجداً سبلاً إلى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجري حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية. فيناجي الشمس بلسان حاله ويحاورها بهذه المحاورة المكللة بالشكر والامتنان فيقول: (إيه يا شمس! يا من تربعت على عرش جمال العالم! يا لطيفة السماء وزهراءها! يا من أضفيت على الأرض بهجة ونوراً، ومنحت الأزهار ابتسامة وسروراً، فلقد منحت الدفء والنور معا لبيتي ومشتلي الصغير، كما وهبت للعالم أجمع الدفء والنور).

بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها بهذا الأسلوب، إذ إن آثار ضوء الشمس محددة بحدود المرآة وقيودها، وهي محصورة بحسب قابلية تلك المرآة واستيعابها للضوء. وبعد فانظر عبر منظار هذين المثالين إلى القرآن الكريم لتشاهد أعجازه، وتدرك قدسيته وسموه، أجل إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،[٣] وهكذا فإن منح القرآن أعلى مقام من بين الكلمات جميعاً، تلك الكلمات التي لا تحدها حدود، مرده أن القرآن قد نزل من الاسم الأعظم ومن أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى، فهو كلام الله، بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السموات والأرض، وهو مكالمة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى. وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء. وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية، إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات. وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة. ولأجل هذه الأسرار أطلق على القرآن الكريم ما هو أهله ولائق به اسم (كلام الله) (ص٧).

أما سائر الكلمات الإلهية: فإن قسماً منها كلام نابع باعتبار خاص، وبعنوان جزئي، وبتجلٍ جزئي لاسم خصوصي، وربوبية خاصة، وسلطان خاص، ورحمة خصوصية. فدرجات هذه الكلمات مختلفة متفاوتة من حيث الخاص والكلي، فأكثر الإلهامات من هذا القسم إلا أن درجاتها متفاوتة جداً. فمثلاً: إن أبسطها وأكثرها جزئية هي إلهام الحيوانات، ثم إلهام عوام الناس، ثم إلهام عوام الملائكة، ثم إلهام الأولياء، ثم إلهام كبار الملائكة.

ومن هذا السر نرى أن ولياً يقول: "حدثني قلبي عن ربي" أي: بهاتف قلبه. ومن دون وساطة ملك، فهو لا يقول: حدثني رب العالمين. أو نراه يقول: إن قلبي عرش ومرآة عاكسة لتجليات ربي. ولا يقول: عرش رب العالمين، لأنه يمكن أن ينال حظاً من الخطاب الرباني وفق استعداداته وحسب درجة قابليته وبنسبة رفع ما يقارب سبعين ألف حجاب.

نعم إنه بمقدار علو كلام السلطان الصادر من حيث السلطنة وسموه على مكالمته الجزئية مع أحد رعاياه من العوام، وبمقدار ما يفوق الاستفادة من فيض تجلي الضوء من الشمس التي هي في السماء على استفادة فيضها من المرآة، يمكن فهم سمو القرآن الكريم على جميع الكلام الإلهي والكتب السماوية.

فالكتب المقدسة والصحف السماوية بالدرجة الثانية بعد القرآن الكريم في درجة العلو والسمو. كل له درجته وتفوقه، كل له حظه من ذلك السر للتفوق، فلو اجتمع جميع الكلام الطيب الجميل للإنس والجن –الذي لم يترشح عن القرآن الكريم– فإنه لا يمكن أن يكون نظيراً قط للقرآن الكريم ولا يمكن أن يدنو إلى أن يكون مثله.

وإذا كنت تريد أن تفهم شيئاً من القرآن الكريم قد نزل من الاسم الأعظم ومن المرتبة العظمى لكل اسم من الأسماء الحسنى فتدبر في (آية الكرسي) وكذا الآيات الكريمة التالية وتأمل في معانيها الشاملة العامة السامية:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ﴾[٤]

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾[٥]

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾[٦]

﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِي﴾[٧]

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٨]

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٩]

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ.. ﴾[١٠]

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ... ﴾[١١]

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[١٢]

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ.. ﴾[١٣]

وأمثالها من الآيات الجليلة، ثم دقق النظر في السور المبتدئة بـ﴿الحمد لله﴾ و﴿تسبح... ﴾ لترى شعاع هذا السر العظيم ثم أنظر إلى السور المستهلة بـ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ و﴿حم﴾ لتفهم أهمية القرآن لدى رب العالمين. وإذا فهمت السر اللطيف لهذا الأساس الرابع، تستطيع أن تفهم: السر في أن أكثر الوحي النازل إلى الأنبياء إنما هو بوساطة مالك، أما الإلهام فبلا وساطة.

وتفهم السر في أن أعظم ولي من الأولياء لا يبلغ أي نبي كان من الأنبياء. وتفهم السر الكامن في عظمة القرآن وعزته القدسية وعلو إعجازه. وتفهم سر لزوم المعراج وحكمة ضرورته، أي تفهم السر في رحلته –صلى الله عليه وسلم– إلى السموات العلا وإلى سدرة المنتهى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ومن ثم مناجاته معه سبحانه، مع أنه جل جلاله ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[١٤] ثم عودته بطرف العين إلى مكانه.

أجل! إن شق القمر كما أنه معجزة لإثبات الرسالة، أظهرت نبوته إلى الجن والإنس، كذلك المعراج هو معجزة عبوديته صلى الله عليه وسلم أظهرت محبوبيته إلى الأرواح والملائكة. اللهم صل وسلم عليه وعلى آله، كما يليق برحمتك وبرحمته، آمين.[١٥]

إطلالة:

بداية أخبر القارئ أن اختيار الرسالة الأولى المعنونة بـ"سمو القرآن" يعود لكونها فاتحة المجموعة، ليس بمعنى البداية، إنما لأنها جمعت معاني باقي الرسائل جميعاً، وتضمنتها، حيث تنبني عليها وتتأسس كل الرسائل الباقية، بل تتوالد كدلالات توحي بها الرسالة الأولى. ولعل المستوى اللغوي هو الذي أعطى الرسائل القدرة على الاستحواذ على قلب وعقل القارئ.

لذا تكون البداية من هذه النقطة، فنظرة سريعة إلى الرسالة تبرز على سطح النص قدرة أسلوبية ودلالية واضحة، صحيح أن سعيد النورسي لم يكتب الرسائل على أنها إبداع أدبي، ومع ذلك توفرت فيها السمات الأدبية التي تخاطب كفاية متلقٍ ما، على دراية بهذه السمات، يتذوقها قبل أن يدرك دلالاتها، فالطريق إلى المتلقي يتم هنا عبر اللغة التي قد لا يعي القارئ العادي أدبيتها، لكنه يتأثر بها وتستحوذ عليه.

فالكاتب يتوجه مباشرة إلى المتلقي، تشير إلى ذلك الأفعال الموجه للمخاطب (أردت، تفهم، تعرف، أنظر، تأمل...). ليس هناك حاجز بين صوت النورسي والقارئ أو السامع (المتلقي)، إذ يتحقق الخطاب عبر اللغة التي تشتغل على مستوى التركيب وعلى مستوى الدلالة، حيث يلجأ الكاتب إلى تكثيفها عبر النص القرآني الذي يعطيها شحنة عقلية وعاطفية تؤكدها أكثر، حتى إذا وقعت في عقل وقلب المتلقي لا تتزعزع، وذلك من أسباب قوة الرسالة في التأثير.

ويشكل الخطاب من جهة ابتهال متعبد يتقرب إلى الله، وفي الوقت نفسه يتوجه إلى القارئ الذي يقف ليقرأ أو ليسمع، وكأنه أمام شخص يؤدي شعيرة الصلاة في خشوع، متقنة الأداء والأسلوب، فيغنم عبادة الله وانقياذ المتلقي المشاهد السامع الذي لا يجد إلا أن يكبر خلفه مصلياً متقناً صلاته، وهكذا ما زال العدد يزيد ويزيد بفضل إتقان الأداء، وهو ما تفعله الرسالة في القارئ، وعندئذ تغدو عملية التخاطب مزدوجة في مستواها اللغوي.

يعمد سعيد النورسي في مقاطع من الرسالة إلى توظيف صيغ الغائب ليحكي في مثالين عن قدرة التأثير التي يتميز بها الخطاب المباشر دون وساطة في مقابل الخطاب غير المباشر الذي لا يتحقق إلا بوساطة، وهنا تتجلى قدرة الكاتب على استحضار حاضره وماضيه ومستقبله الذي يحيل إلى ذاتيته، وما تمتلئ به من إيمان تتحكم في الزمان والمكان، وتتجاوزهما لتصير مستقلة فيحضر الكلام الذي يلي المثالين، محتضناً خفقان القلب المدرك لحقيقة الوجود التي يستمدها من حقيقة القرآن، هنا فقط تتشابك لغة البشر أو لغة الكاتب مع لغة القرآن، إذ تسمو الأولى إلى الثانية وتستند إليها ومنها تستمد قوة اليقين.

هذه اللغة هي التي توحد بين سعيد النورسي وأتباعه وغير أتباعه، فيعجز كل محاول التفريق بينهم. يمارس هذا التواصل بين الكاتب والقارئ صيرورة لا تنقطع، تحافظ عليها اللغة الموظفة المليئة بالمحبة والرحمة والشفقة والسمو تحت راية التوحيد.

تحديد مقاطع الرسالة:

تبدو الرسالة في ظاهرها خطاباً واحداً، لكن بمجرد قراءتها بالتركيز على البناء اللغوي نكتشف أنها مكونة من ثلاثة مقاطع لغوية:

المقطع الأول: تشكله الوحدات الآتية:

١- إذا أردت أن تفهم كيف يسمو القرآن على سائر الكلمات الإلهية وتعرف مدى تفوقه على جميع الكلام، فانظر وتأمل هذين المثالين (ص٥).

٢- وبعد فانظر عبر منظار هذين المثالين إلى القرآن الكريم لتشاهد أعجازه، وتدرك قدسيته وسموه (ص٧).

٣- وإذا كنت تريد أن تفهم شيئاً من القرآن الكريم قد نزل من الاسم الأعظم ومن المرتبة العظمى لكل اسم من الأسماء الحسنى فتدبر في (آية الكرسي) وكذا الآيات الكريمة الآتية وتأمل في معانيها الشاملة العامة السامية:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ﴾[١٦]

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾[١٧]

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾[١٨]

﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِي﴾[١٩]

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٢٠]

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٢١]

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ.. ﴾[٢٢]

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ... ﴾[٢٣]

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[٢٤]

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ.. ﴾[٢٥]

وأمثالها من الآيات الجليلة، ثم دقق النظر في السور المبتدئة بـ﴿الحمد لله﴾ و﴿تسبح... ﴾ لترى شعاع هذا السر العظيم، ثم انظر إلى السور المستهلة بـ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ و﴿حم﴾ لتفهم أهمية القرآن لدى رب العالمين.

٤- وإذا فهمت السر اللطيف لهذا الأساس الرابع، تستطيع أن تفهم: السر في أن أكثر الوحي النازل إلى الأنبياء إنما هو بوساطة ملك، أما الإلهام فبلا وساطة (ص١١).

٥- وتفهم السر في أن أعظم ولي من الأولياء لا يبلغ أي نبي كان من الأنبياء. وتفهم السر الكامن في عظمة القرآن وعزته القدسية وعلو إعجازه، وتفهم سر لزوم المعراج وحكمة ضرورته، أي تفهم السر في رحلته -صلى الله عليه وسلم- إلى السموات العلا وإلى سدرة المنتهى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، ومن ثم مناجاته معه سبحانه، مع أنه جلَّ جلاله ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[٢٦] ثم عودته بطرف العين إلى مكانه (ص١١).

المقطع الثاني: تشكله الوحدات الآتية:

١- المثال الأول: أن للسلطان نوعين من المكالمة، وطرازيْن من الخطاب والكلام:

الأول: مكالمة خاصة بوساطة هاتف خاص مع أحد رعاياه من العوام، في أمر جزئي يعود إلى حاجة خاصة به.

والآخر: مكالمة باسم السلطنة العظمى، وبعنوان الخلافة الكبرى وبعزة الحاكمية العامة، بقصد نشر أوامره السلطانية في الآفاق، فهي مكالمة يجريها مع أحد مبعوثيه أو مع أحد كبار موظفيه، فهي مكالمة بأمر عظيم يهم الجميع (ص٥).

٢- المثال الثاني: رجل يمسك مرآة تجاه الشمس، فالمرآة تلتقط -حسب سعتها- نوراً وضياء يحمل الألوان السبعة في الشمس. فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة، أو مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرأة على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عظم الشمس (ص٦).

بينما رجل يترك المرآة، ويجابه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل عالٍ جداً وينظر إلى شعشعة سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب ثم يرجع ويفتح من بيته الصغير ومن مشتله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس، واجداً سبلاً إلى الشمس التي هي في أعالي السماء ثم يجري حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية. فيناجي الشمس بلسان حاله ويحاورها بهذه المحاورة المكللة بالشكر والامتنان فيقول: (إيه يا شمس! يا من تربعت على عرش جمال العالم! يا لطيفة السماء وزهراءها! يا من أضفيت على الأرض بهجة ونوراً، ومنحت الأزهار ابتسامة وسروراً، فلقد منحت الدفء والنور معا لبيتي ومشتلي الصغير، كما وهبت للعالم أجمع الدفء والنور) (ص٦).

بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها بهذا الأسلوب، إذ أن آثار ضوء الشمس محددة بحدود المرآة وقيودها، وهي محصورة بحسب قابلية تلك المرآة واستيعابها للضوء (ص).

٣- فمثلاً: إن أبسطها وأكثرها جزئية هي إلهام الحيوانات، ثم إلهام عوام الناس، ثم إلهام عوام الملائكة، ثم إلهام الأولياء، ثم إلهام كبار الملائكة.

ومن هذا السر نرى أن ولياً يقول: "حدثني قلبي عن ربي" أي: بهاتف قلبه، ومن دون وساطة ملك، فهو لا يقول: حدثني رب العالمين. أو نراه يقول: إن قلبي عرش ومرآة عاكسة لتجليات ربي. ولا يقول: عرش رب العالمين، لأنه يمكن أن ينال حظاً من الخطاب الرباني وفق استعداداته وحسب درجة قابليته وبنسبة رفع ما يقارب سبعين ألف حجاب (ص٨).

المقطع الثالث: يتشكل من الوحدات الآتية:

١- أجل إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،[٢٧] وهكذا فإن منح القرآن أعلى مقام من بين الكلمات جميعاً، تلك الكلمات التي لا تحدها حدود، مرده أن القرآن قد نزل من الاسم الأعظم ومن أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى، فهو كلام الله، بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السموات والأرض، وهو مكالمة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى، وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء، وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية، إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات، وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة؛ ولأجل هذه الأسرار أطلق على القرآن الكريم ما هو أهله ولائق به اسم (كلام الله) (ص٧).

أما سائر الكلمات الإلهية فإن قسماً منها كلام نابع باعتبار خاص، وبعنوان جزئي، وبتجلٍ جزئي لاسم خصوصي، وربوبية خاصة، وسلطان خاص، ورحمة خصوصية. فدرجات هذه الكلمات مختلفة متفاوتة من حيث الخاص والكلي، فأكثر الإلهامات من هذا القسم إلا أن درجاتها متفاوتة جداً (ص٨).

نعم إنه بمقدار علو كلام السلطان الصادر من حيث السلطنة وسموه على مكالمته الجزئية مع أحد رعاياه من العوام، وبمقدار ما يفوق الاستفادة من فيض تجلي الضوء من الشمس التي هي في السماء على استفادة فيضها من المرآة، يمكن فهم سمو القرآن الكريم على جميع الكلام الإلهي والكتب السماوية.

فالكتب المقدسة والصحف السماوية بالدرجة الثانية بعد القرآن الكريم في درجة العلو والسمو. كل له درجته وتفوقه، كل له حظه من ذلك السر للتفوق، فلو اجتمع جميع الكلام الطيب الجميل للإنس والجن -الذي لم يترشح عن القرآن الكريم- فإنه لا يمكن أن يكون نظيراً أبداً للقرآن الكريم ولا يمكن أن يدنو إلى أن يكون مثله (ص٩).

٢- أجل! إن شق القمر كما أنه معجزة لإثبات الرسالة، أظهرت نبوته إلى الجن والإنس. كذلك المعراج هو معجزة عبوديته صلى الله عليه وسلم أظهرت محبوبيته إلى الأرواح والملائكة. اللهم صل وسلم عليه و على آله، كما يليق برحمتك وبرحمته،آمين (ص١١).

ويجب أن ننبه إلى أن استخلاص هذه المقاطع ليس قائماً على بداية الواحدة منها ونهايته ومرتباً ترتيباً ضمن الخطاب الذي هو الرسالة، إما في الأول أو في الوسط أو في الأخير. إنما هذا التحديد تقتضيه بنية الخطاب اللغوية، أي ما يسمى بالتماسك الداخلي لبناء النص، لذا فهذه المقاطع تتماسك وتنجم بفعل العلاقات الداخلية لا بفعل علاقات التتابع، هذا مع الحفاظ على استقلال كل مقطع بنيوياً رغم تداخله مع باقي المقاطع في السياق العام للرسالة.[٢٨]

قراءة أولية:

كما لاحظنا فإن المقطع الأول يتكون من خمس وحدات لغوية، وهي وحدات سريعة نوعاً ما، وقصيرة إذا ما قورنت بالوحدة الثالثة، عدا الوحدة الخامسة فإنها تبدو أطول وتتخلل المقطع الثاني والثالث، وتأتي هذه الوحدات موزعة عبر الرسالة، بينما يتكون المقطع الثاني من ثلاث وحدات رغم قلتها هي أطول من وحدات المقطع الأول.

ويتكون المقطع الثالث من ثلاث وحدات هي الأطول في الخطاب، مما يولد دلالات مبدئية خاصة وأن المقطع يتحدث عن سمو القرآن، تبرز دلالته في ضوء المقطعين الأول والثاني أكثر في مستويات اللغة، وفي علاقة المقاطع بعضها ببعض حيث يأتي الثاني لينير دلالات الثالث، ويوجد الثالث بوصفه خطابا يتضمنه المقطع الأول رسالة إلى المخاطب تحمل معاني سمو القرآن الكريم.

تقوم الرسالة على صياغة يغلب فيها استعمال الأسماء على الأفعال خاصة في المقطع الثالث الذي يختص بإظهار عظمة القرآن الكريم وسموه، فالنص يتناول موضوع السمو والتعالي بالخطاب القرآني، يعرضه الكاتب عرض نظرياً، يطلق فيه خواطر هي حقائق ثابتة، لا تتقيد بزمان ولا بمكان، وتتجرد منهما لتكسب صفة المطلق؛ لأنها حقائق قرآنية صادرة من الحق سبحانه وتعالى، لذا تغيب العلامات الدالة على الزمان والمكان.

وكان الوصف العنصر الغالب مما أعطى الرسالة سمة تعليمية تتناسب مع خاصيتها بوصفها رسالة موجهة إلى متلقي، وخطاب من مرسل إلى مرسل إليه يؤسسه المقطع الأول الذي تتوالى فيه الأفعال الموجهة للمخاطب (أردت، تفهم، تعرف، انظر، تأمل...). هذا التعاقب للأفعال يعطي الرسالة صفة البرهان أو الإثبات القائم، والاستنتاج القياسي، فالحقيقة العامة المتجلية في عظمة الله تعالى تستلزم عظمة القرآن ما دام هو كلام الله. وهي حقيقة تحول واقعاً مجسداً وحياً في حياة الكاتب سعيد النورسي،

وبرهاناً صادقاً على دوره الرائد والمثالي في تجسيد هذه القيمة الخالدة وما تتضمنه من قيم، تعمل اللغة ومن خلفها الكاتب على نقلها بصدق إلى القارئ في شاعرية وشفافية.

تحليل مقاطع الرسالة:

المقطع الأول:

إذا أعدنا ترتيب الأفعال الموظفة في الوحدات حسب عدد مرات ورودها في المقطع فإنها تأتي على هذا النحو:

- أردت (مرة واحدة)
- تفهم (٩ مرات)
- تعرف (مرة واحدة)
- انظر (٣ مرات)
- تأمل (مرتان)
- تشاهد (مرة واحدة)
- تدرك (مرة واحدة)
- كنت (مرة واحدة)
- تريد (مرة واحدة)
- دقق (مرة واحدة)
- ترى (مرة واحدة)
- تدبر (مرة واحدة)
- تستطيع (مرة واحدة)

والآن نعيد ترتيبها حسب وظيفتها العقلية والمعرفية، ودلالتها في السياق:

١- أردت، كنت، تريد، تستطيع.

٢- انظر، تأمل، تشاهد، دقق، ترى، تدبر.

٣- تعرف، تدرك.

٤- تفهم.

وقد عمدنا إلى تصنيف الأفعال على أساس اشتراكها في الوظيفة والدلالة، ثم رتبناها حسب المراحل التي تتم بها المعرفة، وإنشائيتها في الرسالة، أي بنيتها في الخطاب، لذا يمكن أن نحكم بأن الكاتب قد تعمد ذلك من أجل تحقيق الفهم، ومن ثمّ حصول اليقين.

إذا نظرنا إلى مجموعة الأفعال الأولى وجدناها تحيل إلى الإرادة، أي حصول الإرادة لدى المخاطب من أجل معرفة عظمة القرآن، لذا كانت الأفعال (أردت، كنت، تريد، تستطيع) أي أن الخطوة الأولى في مثل هذه المعرفة لا تكون إلا بالإرادة الذاتية، وبرغبة المتلقي.

إن النورسي يبحث عن الإرادة الكامنة في قلب متلقيه، ليزيل عنها الغبار فتتحرك نحو النور الذي يحدث في القارئ نوعاً من الفضول يدفعه لمواصلة باقي مراحل المعرفة، إنه ذكاء عظيم في مخاطبة النائمين، وعبقرية فذة في استنهاض الإرادة، اعتماداً على اللغة الموظفة، حتى وإن كانت الرسالة في غير لغتها الأصلية، لأن ما يهم هو التركيب.

وعندما ننتقل إلى المجموعة الثانية، وهي تمثل المرحلة الثانية لحصول المعرفة، ولا تتحقق إلا بتحقق المرحلة الأولى، فالأفعال (انظر، تأمل، تشاهد، دقق، ترى، تدبر) تقوم وتنبني بعد تحقق بنية الأفعال في المرحلة الأولى، ولا تعني مجرد صياغتها تحققها، إنما تحققها هو حصولها الفعلي، إنجازها من طرف المتلقي في واقعه، هنا يمكن القول إنها اكتملت بنيوياً.

والجدير بالذكر أن فعل الأمر هو المسيطر، أربعة أفعال أمر (انظر، تأمل، دقق، تدبر) مقابل اثنين مضارعين(تشاهد، ترى) لكنهما دلالياً يتضمنان الأمر في علاقتهما بأفعال الوحدة ضمن سياق الرسالة.

يوجه النورسي للمخاطب هذه الأفعال بعدما يوقظ فيه الرغبة والإرادة في المعرفة، ليتأمل ويتدبر ويشاهد، وحين تصل الرسالة إلى هذه المرحلة تسرد عشر آيات، ثم بعض بدايات السور، تشترك كلها في الدلالة على عظمة قائلها الله سبحانه وتعالى، ومنها يستمد القرآن عظمته، والآيات نفسها تتضمن أفعال المرحلة الثانية يوردها النورسي في سياق الرسالة مباشرة بعد الفعل (تأمل)، وهي دعوة إلى المخاطب من طرف الكاتب، والقرآن الكريم ذاته ليتدبر ويتأمل ما جاء فيها من عظمة، ويشاهد القدرة الحقيقية الخالدة.

فإذا حصل التدبر والتأمل تتحقق المعرفة، والإدراك وهي المرحلة الثالثة التي تمثلها الأفعال (تعرف، تدرك) إذ يعرف المتلقي عظمة الخالق المتجلية في مخلوقاته الواردة في الآيات التي ساقتها الرسالة في المرحلة الثانية، وكذا عظمة كلام الله الذي هو القرآن.

هنا يتحقق الفهم الذي يحتل مساحة واسعة، يتكرر تسع مرات تأكيداً على تحققه بعيداً عن كل شك وريب، فلم يعد لدى المتلقي أيّ تردد أو اضطراب وارد يخص الفهم، فهم بأن الله عظيم وكلامه يستمد منه عظمته، فهو–القرآن– عظيم وما جاء فيه يستحق التطبيق، حتى يصير المطبق بدره إنساناً عظيماً وسط غيره من البشر، فيستحق مرتبة عظيمة في الجنة.

وقد عمد سعيد النورسي إلى تكرار الفعل (تفهم) ليزيل اللبس والشك عند المتلقي، ويتأكد بأنه فعل فهم، فلا ريبة في قلبه بعد ذلك، وهذا هو سبب اقتناع أتباعه بمجرد سماع كلماته هكذا تتحقق المعرفة الصحيحة الصادقة، وبتحققها يحصل اليقين.

المقطع الثاني:

تغيب الأفعال في المقطع الثاني إلا نادرا، ويتشكل من وحدتين تأتي الأولى مباشرة بعد المقطع الأول يتصدرها الفعل تأمل، تكونه أمثلة ثلاثة، يستحضرها سعيد النورسي من أجل تحقيق الفهم والقياس عليها، أي قياس وتعليل المقطع الثالث بالمقطع الثاني.

والمثال في هذا المقام سواء الاسم (مثال) أو المتن يبرز حدة الشرح و الإقناع والتعليل، ويعزز ذلك الأسلوب القائم على الاسترسال والمقارنة بين مقامين مختلفين يقابلان مقامين مختلفين في المقطع الثالث، وبالمقارنة يتضح المقصد والفارق الدلالي الجوهري الناتج عن الاختلاف، فالخطاب منطلق من السلطان يتخذ في مساره إلى المتلقي مستويين أو طرازين كما قال سعيد النورسي، نوضحه للقارئ عبر هذه الترسيمة:

مرسل ← مرسل إليه

القناة

تكون القناة إما مباشرة أو غير مباشرة

المثال الأول:

الخطاب

– المستوى الأول: السلطان ← الرعية خطاب غير مباشر

بوساطة هاتف

الخطاب

– المستوى الثاني: السلطان ← الوزير خطاب مباشر

بلا وساطة

المثال الثاني:

وفيه يحاول شخصان الاستفادة من نور الشمس، الأول يستفيد مستخدماً مرآة، والثاني يواجه النور مباشرة.

النور

- المستوى الأول: الشمس ـــــــ الرجل الأول

عبر المرآة

استفادة غير مباشرة

النور

- المستوى الثاني: الشمس ـــــــ الرجل الثاني

من غير مرآة

استفادة مباشرة

نحصل على الثنائية: (خطاب مباشر/ خطاب غير مباشر، بوساطة).

أو (اتصال مباشر/ اتصال غير مباشر، بوساطة).

ويتم الاتصال أو الخطاب وفقاً للرتبة والمكانة التي يحتلها المرسل إليه عند المرسل، فكلما تدرجت الرعية أكثر في مراتبها نحو السلطان، زالت بينها وبينه الوسائط، وكان الخطاب مباشراً وذا أثر بالغ، وكلما اقترب الرجل أكثر من الشمس، وواجهها استفاد أكثر من نورها.

هنا يأتي القياس الذي يمارسه النورسي، إذ يقيس مرتبة القرآن، ومكانته عند الله على هذين المثالين، من أجل الإفهام وتحقيق الإدراك للمتلقي، فنجد في المقطع الآتي ما يأتي:

١- الله سبحانه وتعالى ـــــــ القرآن الكريم

٢- الله سبحانه و تعالى ـــــــ الكتب والصحف السماوية

فكون القرآن الكريم نزل من أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من أسماء الله الحسنى، يعد كلام الله وهو أهل لذلك، ومن ثمّ يكون له الأثر البالغ في القارئ أو السامع. عكس الكلمات الأخرى التي قالها الله تعالى لاعتبارات خاصة.

هذا ما يحققه القياس الذي أراده سعيد النورسي كما يتضح في الرسم الآتي:

قياس

المثال | الحقيقة (عظمة القرآن الكريم)

ثم يأتي التعليل الذي يؤديه المثال الثالث، لكن هذه المرة ليس تحت عنوان (المثال)، إنما بتوظيف عبارة (فمثلاً)، لكي تتماسك، وتنسجم مع وظيفتها، وهي التعليل، دون أن تختلف عن المثالين السابقين من حيث البناء، وذلك في قول الوليّ: "حدثني قلبي عن ربي" ويتضمن دلالياً القول الغائب في النص "حدثني ربي عن طريق هاتف (رسول)"، فنحصل على:

الحديث

١- الرب جل جلاله ـــــــ الولي الحديث مباشر

من غير وساطة

الحديث

٢- الرب جل جلاله ـــــــ الولي الحديث غير مباشر

بوساطة

يقع الحديث في المستوى الأول مباشرة في القلب، وفي المستوى الثاني يتم بوساطة، ويكون التعليل حسب الرسم الآتي:

تعليل

الحقيقة (عظمة القرآن) | المثال

بهذه الطريقة يمارس المقطع الثاني وظيفته، القياس والتعليل، من أجل الإقناع، إقناع المتلقي بالحقيقة الكبرى، وهي عظمة القرآن المتجلية في كلماته التي يريد سعيد النورسي من المتلقي التأمل فيها ثم إدراكها ففهمها.

المقطع الثالث:

يمثل المقطع الثالث موضوع الخطاب الموجه إلى القارئ المرسل إليه من طرف سعيد النورسي المرسل، ويقوم المقطع الأول بتأكيدها والبرهان عليها، يحضران بوصفهما عنصرين ينيران بنيتها، ويشاركان في بنائها دلالياً.

تعرض الرسالة عظمة القرآن باعتبار صدوره من الله عز وجل، في مقابل الكلمات الأخرى والكتب السماوية، ثم باعتبار من نزل عليه، وهو الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

في الوحدة الأولى تتجلى عظمة القرآن الكريم وسموه في مقابل سائر الكلمات الإلهية:

أ- القرآن الكريم/ ب – سائر الكلمات الإلهية

في الوحدة الثانية تظهر عظمة القرآن الكريم في مقابل الكتب السماوية:

أ – القرآن الكريم/ ب – الكتب السماوية

في الوحدة الثالثة تظهر عظمة القرآن الكريم وسموه في من نزل عليه محمد صلى الله عليه وسلم:

القرآن الكريم

الله تعالى ـــــــ محمد صلى الله عليه وسلم

بهذه الطريقة يقدم سعيد النورسي عظمة القرآن الكريم في هذه الرسالة التي تتضمن باقي الرسائل الواردة في الكتاب (أنوار الحقيقة) عبر لغة استطاعت أن تخترق ببنائها وأسلوبها أذن وعين القارئ، لتصل إلى قلبه وعقله، ثم نراها متجلية في سلوكه، وهو هدف الرسالة، هدف ظهر في عنوان الكتاب (أنوار الحقيقة، مباحث في التصوف والسلوك).

تركيب:

إن الرسالة قد تكون فعالة بقوة إيمان صاحبها، وصدق كلامه، واستقامة سلوكه، لكن قدرته على المخاطبة، وصياغتها لغوياً في مثل هذا المستوى المتعالي مكنها من بلوغ مرامها. إنها حقيقة يستهدفها الإخبار ويقصدها، بحيث ينتظم الكلام وفق هذا المقصد.

في حدود ما تقدم، يقوم المقطع الأول بمهمة التنبيه، وبعث الإرادة في نفس المتلقي، بينما يقوم المقطع الثاني بمهمة التعليل والبرهنة، ويأتي المقطع الثالث ليؤدي مهمة التعريف والتعليم، وكذا التذكير بحقيقة القرآن، لذا كانت له المساحة الأكبر في الرسالة.

وما يعطيها صفة الحقيقة المطلقة الثابتة الخالدة هو تجردها من الزمان والمكان، فهي لا تحاكي حادثاً وقع في واقعنا اليومي، أو حادثاً تاريخياً، فتكون خاضعة لتغيرات الزمان وتبدلاته، تتبدل بتبدل ظروفها، إنما هي واقعة في المطلق الذي يتجاوز الزمن المادي، إنها عقيدة محكومة بزمن النص القرآني الذي بدوره يستمد أزليته من أزلية قائله سبحانه وتعالى.

لذلك يريد سعيد النورسي تنبيه الغافلين لعلاقة الإنسان بهذه الحقيقة سواء أكان مرسلاً لها أم متلقياً، وهنا يمتلك القائل أو الناقل لهذه الحقيقة حضوراً في نص الرسالة، ويغيب سعيد النورسي فلا تدل عليه اللغة بضمائرها وأفعالها، إنما نتلمسه بوصفها قيمة روحية عبر اللغة ذاتها، حين تلبس هذه الروح المؤمنة الممتلئة باليقين، بينما يحضر المتلقي المخاطب في المقطع الأول، ويغيب في المقطع الثاني والثالث، حينما تركز الرسالة على الحقيقة الكبرى (عظمة القرآن الكريم).

وتتخذ بنية النص من حيث علاقتها بصاحبها طابعاً حيادياً، لا هوية للنص على مستوى اللغة تفصح عن كونها رسالة عبر ما جاء أعلى غلاف الكتاب في الزاوية اليمنى (من كليات رسائل النور)، لا

تقع في زمن محدد بين مرسل ومرسل إليه معلومين، ولا في مكان ما، باستثناء اسم المؤلف (سعيد النورسي) على الغلاف، وهذا يعطي الرسالة صفة المطلق، أي أنها تخاطب القارئ في كل مكان وزمان، وكأنها رسالة تتجدد كتابتها لترسل عبر الزمان والمكان، إنها رسالة خالدة.

نعود لنؤكد ما قلنا سلفاً، وهو موقع الرسالة في بناء الكتاب، فقد جاءت فاتحة له، وتضمنت دلالياً الرسائل الأخرى، فتفرعت عنها، لتشرح بالتفصيل، الحقائق الكبرى الواردة جملة في الرسالة الفاتحة.

وبما أنها احتوت حقيقة عظمة القرآن الكريم وسموه، بما يحويه من مواضيع الرسائل الأخرى، استحقت أن تكون فاتحة الرسائل. استطاع سعيد النورسي أن يوظف لغة تشكلت لتناسب هذه الصفة، فكانت لها القوة والقدرة على الانتقال من كونها حقيقة في مستوى اللغة إلى حقيقة في مستوى الاعتقاد، ثم تتحول إلى حقيقة مجسدة في سلوك الإنسان الذي هو المتلقي.

ونختم القول بأن الرسالة، إذا استطاعت أن تقدم وتخبر عن عظمة القرآن، فإنها وهي تفعل ذلك اكتسبت شيئاً من هذه العظمة، فكانت عظيمة في مقابل الكلام البشري الآخر، ودليلا على عظمة قائلها العظيم في مقابل البشر الآخرين، لذا فمن أراد أن يكون عظيماً فعليه أن يشرب من نبع العظمة الأصيل وهو القرآن العظيم كلام الله.

هوامش البحث:

[١] البوطي، سعيد رمضان، **من الفكر والقلب: فصول من النقد في العلوم والاجتماع والأدب**، (الجزائر، عين مليلة: دار الهدى، ١٩٩٠م)، ص٢٤٤.

[٢] انظر: فرنسيس، مريم، **في بناء النص ودلالته (محاور الإحالة الكلامية): دراسات لغوية**، (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨م).

[٣] سورة لقمان، الآية٢٧.

[٤] سورة الأنعام، الآية٥٩.

[٥] سورة آل عمران، الآية٢٦.

[٦] سورة الأعراف، الآية٥٤.

[٧] سورة هود، الآية٤٤.

[٨] سورة الاسراء، الآية٤٤.

[٩] سورة لقمان، الآية٢٨.

[١٠] سورة الأحزاب، الآية٧٢.

[١١] سورة الأنبياء، الآية١٠٤.

[١٢] سورة الزمر، الآية٦٧.

[١٣] سورة الحشر، الآية٢١.

[١٤] سورة ق، الآية١٦.

[١٥] انظر: النورسي، سعيد، **أنوار الحقيقة: مباحث في التصوف والسلوك**، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط١، (القاهرة: سوزر النشر، ٢٠٠٢م)، ص٥.

[١٦] سورة الأنعام، الآية٥٩.

[١٧] سورة آل عمران، الآية٢٦.

[١٨] سورة الأعراف، الآية٥٤.

[١٩] سورة هود، الآية٤٤.

[٢٠] سورة الإسراء، الآية٤٤.

[٢١] سورة لقمان، الآية٢٨.

[٢٢] سورة الأحزاب، الآية٧٢.

[٢٣] سورة الأنبياء، الآية١٠٤.

[٢٤] سورة الزمر، الآية٦٧.

[٢٥] سورة الحشر، الآية٢١.

[٢٦] سورة ق، الآية١٦.

[٢٧] سورة لقمان، الآية٢٧.

[٢٨] انظر: العيد، يمنى، **في معرفة النص: دراسات في النقد الأدبي**، ط١، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م)، ص١٧٣.

المراجع: References:

Al-Būṭi, Saʿīd Ramaḍān, m*in al-Fikr wa al-Qalb: Fuṣūl min al-Naqd fī al-ʿulūm wa al-ʾijtimāʿ wa al-ʾadab*, (Algeria, ʿain Malīlah: Dār al-Hudā, ١٩٩٠).

Al-ʿīd, Yumnā, *fī Maʿrifah al-Naṣṣ: Dirāsāt fī al-Naqd al-ʾadabiy*, ١st edition, (Beirut: Dār al-Āfāq al-Jadīdah, ١٩٨٣).

Al-Nawrasiy, Saʿīd, *ʾanwār al-Ḥaqīqah: Mabāḥith fī al-Taṣawwuf wa al-Sulūk*, trans. ʾiḥsān Qāsim al-Ṣāliḥiy, ١st edition, (Cairo: Swizr al-Nashr, ٢٠٠٢).

Faransīs, Maryam, *fī Bināʾ al-Naṣṣ wadilālatuh (Maḥāwir al-ʾiḥālah al-Kalāmiyyah): Dirāsāt Lughawiyyah*, (Damascus: Wizārah al-Thaqāfah, ١٩٩٨).